

اختيارات نهج البلاغة

الفكرة والأسس

الأستاذ المساعد الدكتور

عباس علي الفحام

المحتويات

المقدمة

التمهيد : نهج البلاغة.. الوثيقة الحية

أسس الاختيارات

المحور الأول - الأسس الموضوعية

١- العقيدة :

مزايا النسب

علو الهمة

٢- تنوع المضامين :

الله تعالى

الإنسان

العالم

المحور الثاني - الأسس الفنية

١- الحس البلاغي :

الفنون البيانية (المجاز ، الاستعارة ، الكناية)

الفنون البديعية

٢- سمة العصر :

فكرة الاختيارات

أسلوب الرضي

المقدمة

الحمد لله رب العالمين وأشرف السلام على محمد الأمين وعلى آله الطيبين وبعد :

فإنه من رفيع الشرف للباحثين أن يوظفوا أقلامهم في خدمة التراث العلوي ، لاسيما في الكتابة حول نهج البلاغة ، ونرجو أن ننال بعض تلك الكرامة بانتهاز الفرصة اليوم فيما وفرته العتبة العلوية المقدسة والقائمون عليها من الفوز بمشاركة الكتابة ، ومن هنا اخترنا عنوان البحث (اختيارات نهج البلاغة ، الفكرة والأسس) وتضمنت خطة الدراسة تمهيدا وتفصيلا في أسس الاختيارات على النحو الآتي :

درس التمهيد: موضوع (نهج البلاغة .. الوثيقة الحية) بغية إلقاء بعض الضوء على الأثر الحي المعاصر لهذا الكتاب الخالد .

وتضمن جوهر الدراسة الأسس التي قامت عليها اختيارات الشريف الرضي لكلام الإمام عليه السلام وتحددت بمحورين هي :

المحور الأول : الأسس الموضوعية ، ودرست أساسين منها هما : الأول : العقيدة. والثاني : تنوع المضامين .

أما المحور الثاني : فقد شمل أساسين أيضا هما : الأول: الحس البلاغي . والثاني: سمة العصر.

ولا ريب في أن جدة الموضوع تشكل صعوبة لا يستهان بها في كتاب رفيع السبك متنوع المعاني مثل نهج البلاغة، ويمكن أن أزعج - بلا رياء إن شاء الله - أن الذي ذلل لي ما استصعبت هو تخصصي في هذا الأثر الخالد وكتابتي الدائمة حوله ، وبعض معرفتي فيما كتب عن كلام أمير المؤمنين عليه السلام قديما وحديثا التي كانت مستندي فيما رجعت إليه، وإلا فإن تحديد الأسس التي عني بها جامع النهج تتطلب إدامة نظر وترو في دراسة النصوص وزمنا ليس بالقليل يكتنف ذلك كله ، فله الحمد أولا وآخرا أن حباننا بنعمة الكتابة في تراث عظيم أهل البيت بعد محمد صلى الله عليه وآله ، وعسى الله أن يوفقنا في الكشف عن الفائدة وتجذب التكرير .

عباس علي الفحام

جامعة الكوفة / كلية التربية الأساسية

النجف الأشرف / عيد الغدير ١٤٣٤ هـ

التمهيد

نهج البلاغة .. الوثيقة الحية

تقاس آثار العظماء بقدرتها على مواكبة الحياة ومدى عطائها الدائم مهما بعدت الدهور وتقدمت الأزمان، وهكذا الحال مع الكتاب الخالد الحي (نهج البلاغة) فقد توالى عليه الشروح والتصنيفات منذ أن جمع الشريف الرضي كلام الإمام علي عليه السلام في هذا الكتاب الذي أجاد في تسميته حتى تجاوزت المائة شرح إلى هذا اليوم. ومما يدل على حياة هذا الأثر اعتناء الدارسين الأكاديميين اليوم في الجامعات العالمية بشكل عام والعراقية بشكل خاص حتى وصلت الرسائل والأطاريح حوله إلى العشرات شرحا وتحليلا في مختلف التخصصات العلمية في اللغة والبلاغة وفي التاريخ والإدارة وعلوم الاجتماع . وقد لفت نهج البلاغة نظر عالم اليوم الشديد التعقيد والمتأزم من جهات إنسانية عدة ، فكان أن تبنت منظمة الأمم المتحدة أرقى نظرياته الإنسانية في الدعوة إلى الحوار والإخاء فكان أن اتخذت من مقولة الإمام الخالدة : ((الناس صنفان إما أخ لك في الدين وإما نظير لك في الخلق))^(١) شعارا لها في الدعوة إلى محاوره الحضارات ونبذ إقصاء الإنسان لأخيه، ودعت أيضا إلى اعتماد وثيقة عهد الإمام إلى مالك الأشتر^(٢) دستورا إنسانيا لعالم اليوم الذي أسره التطرف بأشكاله المقيتة المختلفة ، إذ ليس ادعاء الدين وحده الوجه الأوحده له في عالمنا المعاصر بل استعباد الدول اقتصاديا وسياسيا وثقافيا على أساس قانون الأقوى شكل مقيت آخر من أشكال التطرف التي حاربها الإمام في عهده لمالك الأشتر الذي فصل الكلام فيه في احترام حقوق الإنسان وحقوق الحيوان واحترام الجار ومراعاة الطبقات المختلفة للرعية ، وهو بحق دستور إنساني متكامل وفوق ذلك ليس مجرد نظريات كما هو الحال في العالم المعاصر بل هي تجارب قابلة للتنفيذ وتصلح لكل الأزمان ، ومن هنا سر عظمة كلام علي عليه السلام ، إنه شخصية لا يمكن أن يحتكرها زمن دون زمن ولا قوم دون قوم .

في نهج البلاغة قيم إنسانية حية واحترام لما يسمى اليوم في عالمنا بالأقليات التي لا يعترف الإسلام بهذه التسميات .. الأكثرية والأقلية .. فكان صاحبه الأثير وحواريه هو ميثم

(١) نهج البلاغة، الإمام علي (ع) : ٨٤ / ٣

(٢) تنظر ترجمته : رجال ابن داوود الحلي : ١٥٧ ، معجم رجال الحديث ، الخوئي : ١٦٧/١٥-١٦٨

التمار^(٣) وكان لا يقبل أن يرى كتابيا يبيع ماء وجهه من أجل لقمة العيش في بلاد الإسلام ، فقد روي ((أنه مر بشيخ مكفوف كبير يسأل ، فقال أمير المؤمنين ما هذا ؟ فقيل له : يا أمير المؤمنين انه نصراني . فقال الإمام : استعملتموه حتى إذا كبر وعجز منعمتموه !! . أنفقوا عليه من بيت المال))^(٤) ، نعم أمر بأن يجعل له راتباً من بيت المال حفظاً لإنسانيته كيلا تراق . وفي موقف آخر ساوى الإمام(ع) في المنزلة بين المسلمة وغير المسلمة في الأذى الذي لحقها حين وردت خيل معاوية الأنبار وقتلت عاملة الضحاك بن قيس على الأنبار فقال : ((هذا أخو غامد قد وردت خيله الأنبار، وقد قتل حسان بن حسان البكري وأزال خيلكم عن مسالحها، ولقد بلغني أن الرجل منهم كان يدخل على المرأة المسلمة والأخرى المعاهدة ، فينتزع حبلها وقلبها وقلائدها ورعاثها ما تمتنع منه إلا بالاسترجاع والاسترحام، ثم انصرفوا وافريرين ، ما نال رجلا منهم كلم ولا أريق لهم دم . فلو أن امرأ مسلماً مات من بعد هذا أسفاً ما كان به ملوماً بل كان به عندي جديراً ..))^(٥)، هذه هي إنسانية علي عليه السلام ونظيرته الشاملة بين الناس حتى في لحظات الأسى هذه لم ينس حق الآخرين ولم يذكر المسلم فحسب ، إذ لا تمييز بين بني الإنسان في المبادئ الإسلامية على أساس العرق أو القومية أو الطائفة إلا بمقدار صلاح النفس وحسن سلوكها مع الآخرين ، قال تعالى: ((إن أكرمكم عند الله أتقاكم))^(٦) ، وجرى على ذلك سنة النبي الأعظم صلى الله عليه وآله في أحاديثه وسيرته فالناس في حديثه ((سواء كأسنان المشط))^(٧) و((المسلم من سلم الناس من لسانه ويده))^(٨) . ولهذا الخلق الرفيع والنظرة الإنسانية الحقة عشق الناس علياً عليه السلام وأحبه الآخرون من الأديان المختلفة إلى هذا اليوم ، فما كتب عنه الأدباء المسيحيون كان أروع وأبلغ كجورج جرداق في سلسلة روائعه (الإمام وصوت العدالة الإنسانية)، وسليمان كتاني بأسلوبه الأدبي في (الإمام علي نبراس ومتراس) وما نظمه الأب بولس سلامة من ملحمة شعرية غديرية رائعة مثل رائع آخر .

(٣) تنظر ترجمته في : الفهرست، الشيخ الطوسي: ١٥٠ - ١٥١ .

(٤) تهذيب الأحكام، الشيخ الطوسي: ٦/ ٢٩٣، وسائل الشيعة (آل البيت)، الحر العاملي: ٦٦/١٥

(٥) نهج البلاغة، الإمام علي(ع): ٦٨ / ١ - ٦٩

(٦) الحجرات : ١٣

(٧) كنز العمال ، المتقي الهندي : ٣٨/٩

(٨) مسند أحمد ، أحمد بن حنبل: ٢٢٤/٢

أسس الاختيارات

بنى الشريف الرضي كتابه الذي وسمه بـ (نهج البلاغة) على جملة من الأسس بعضها موضوعي وبعضها الآخر فني لاختياراته المختلفة من كلام الإمام علي عليه السلام ، وهي أسس بعضها أعلن عنه وكثير منه لم يعلن عنها، ولكن يمكن استشفافها واستجلاؤها بالوقفة المتأنية لهذا الكتاب العظيم وإدامة النظر فيه ، ويمكن حصرها على النحو الآتي :

المحور الأول

الأسس الموضوعية

أولاً: العقيدة

مزايا النسب

لا ريب في أن لعقيدة الشريف الرضي (ت ٤٠٠هـ) المحبة لعلي عليه السلام وموالاته أثراً واضحاً في الإخلاص في جمعه لاختياراته لكلام أمير المؤمنين عليه السلام والتعليق عليها ، وتبويبها ، فهو من الدوحة العلوية السامقة يصل نسبه بجده أمير المؤمنين عليه السلام من جهة الإمام موسى بن جعفر الكاظم عليه السلام ، فهو أبو الحسن محمد بن أبي أحمد الحسين بن موسى بن محمد بن موسى بن إبراهيم بن موسى بن جعفر الصادق عليه السلام^(٩)، ((وكان أبوه النقيب أبو أحمد جليل القدر ، عظيم المنزلة في دولة بني العباس ودولة بني بويه ، ولقب بالطاهر ذي المناقب ، وخاطبه بهاء الدولة أبو نصر بن بويه بالطاهر الأوح ، وولي نقابة الطالبين خمس دفعات، ومات وهو متقلداً .. ودفن النقيب أبو أحمد أولاً في داره ، ثم نقل منها إلى مشهد الحسين عليه السلام ... وأم الرضي أبي الحسن فاطمة بنت الحسين (بن أحمد) بن الحسن الناصر الأصم صاحب الديلم ، وهو أبو محمد الحسن بن علي بن الحسن بن علي بن عمر بن علي بن أبي طالب عليهم السلام . شيخ الطالبين وعالمهم وزاهدهم ، وأديبهم وشاعرهم ، ملك بلاد الديلم والجل ، ويلقب بالناصر للحق ،.. وهي أم أخيه أبي القاسم علي المرتضى أيضاً))^(١٠).

(٩) ظ.لسان الميزان، ابن حجر : ١٤١/٥ ، الأعلام، الزركلي: ٩٩/٦

(١٠) شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد: ٣٢/١

ومواهب الرضي كثيرة ميزته عن أقرانه ومكنته من احتياز قصب السبق في علوم العربية ((فقد كان حافظا للقرآن عارفا من الفقه والفرائض طرفا قويا، وكان رحمه الله عالما أدبيا ، وشاعرا مفلحا ، فصيح النظم ، ضخم الألفاظ ، قادرا على القريض ، متصرفا في فنونه ، إن قصد الرقة في النسب أتى بالعجب العجاب ، وإن أراد الفخامة وجزالة الألفاظ في المدح أتى بما لا يشق فيه غباره ، وإن قصد في المراثي جاء سابقا والشعراء منقطع أنفاسها على أثره . وكان مع هذا مترسلا ذا كتابة قوية))^(١١)، وقد شهدت له بذلك كله آثاره الأدبية من الشعر والتأليف معا .

وحسب الرضي فخرا أن يكون متفردا في جهده الخالد حين انبرى لجمع كلام جده علي عليه السلام من بطون الكتب المتفرقة التي سبقته كتاريخ الطبري ، والأغاني ومقاتل الطالبين لأبي الفرج الأصفهاني ، والحيوان والبيان والتبيين للجاحظ ، والشافعي للشريف المرتضى ، والمغني للفاضل عبد الجبار ، وحلية الأولياء لأبي نعيم ، وكتاب صفين للمنقري ، والكامل للمبرد ، والأوائل لأبي هلال العسكري ، وغيرها ، فسواه من أدباء عصره وعلمائه لم يشرع في مثل هذا العمل إما انشغالا بمديح السلطان وتملقه، أو خوفا من إظهار الولاء للإمام علي عليه السلام.

على أنه في الوقت ذاته ينبغي تبجيل ما كتب وصنف من العلماء والأدباء عن حب أهل البيت وإظهار علمهم ، ولا أريد هنا الإغضاء من شأنهم – معاذ الله – بل أؤكد حقيقة أن عقيدة ولاء الشريف الرضي لأبي المؤمنين عليه السلام كانت سببا واضحا دفعه إلى الإبداع في الجمع والاختيار والوقوف والتعليق واختيار الاسم الخالد له (نهج البلاغة) . وتكفي للتعرف على عمق ولاء الرضي وخلص عقيدته لما يؤمن به من محبة لوجه عليه السلام – أقول – تكفي نظرة متأنية على التعليقات على بعض خطب الإمام علي عليه السلام ورسائله وقصار كلمه التي طرز بها الكتاب، وعدم تحرجه من ذكر كلام علي عليه السلام الذي اجتهد التاريخ ليحرفه ، أو يحذفه من الذاكرة ، كالخطبة الشقشقية^(١٢)، وكثير من الأحداث التاريخية ومواقف بعض الصحابة التي كان فيها الإمام علي عليه السلام شاهدا وموثقا . ومن جميل ما يذكر هنا هو تمكن التعبير العلوي من التسجيل الوثائقي للفتن التي استعر أوارها في عصر الإمام عليه السلام بالصوت والصورة – نعم بالصوت والصورة - ذلك أن التعبير البياني الرفيع الذي

(١١) شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد: ٣٢/١

(١٢) ظ. المصدر نفسه : ١٥١/١

جرى على لسان الإمام تعبير تشيع فيه الصور وتبدو عليه الحركة وترتسم عليه الألوان، فهذه المؤثرات جميعا تحيل قارئ النهج إلى مشاهد منفعل يرى المعاني وهي تتحرك أمام عينيه وصورها وهي تتخيل ناطقة لما شهد عصره من فتن وأحداث^(١٣) ، فكان بحق كلام الإمام(ع) وثيقة تاريخية على غاية من الأهمية ، وهنا تبدو قيمة الاختيارات الموضوعية والفنية التي عمل الرضي على جمعها ولم يجرؤ على ذلك أحد سواه.

علو الهمة

إن من الأسباب الخفية التي ربطت بين السيد الرضي وبين طبيعة اختياراته هي تلك القيم الرفيعة التي تضمنتها كلمات علي عليه السلام المتعلقة بسمو النفس ورفعتها وبعد همتها وتعاليتها عن الدنيا ، وقد عرف عن الرضي بأنه كان عفيفا شريف النفس ، عالي الهمة ، ملتزما بالدين وشرائعه ، ولم يقبل من أحد صلة ولا جائزة ، حتى أنه رد صلات أبيه ، وناهيك بذلك شرف نفس ، وشدة ظلف . وقيل في سيرة الرضي أن بني بويه اجتهدوا على قبوله صلاتهم فلم يقبل . وكان يرضى بالإكرام وصيانة الجانب وإعزاز الأتباع والأصحاب ، وكان يميل إلى الطائع العباسي أكثر من القادر^(١٤) ، وكان هو أشد حبا وأكثر ولاء للطائع منه للقادر ، وهو القائل للقادر في قصيدته التي مدحه بها ، منها^(١٥):

عظفا أمير المؤمنين فإننا في دوحة العلياء لا نتفرق
ما بيننا يوم الفخار تفاوت أبدا كلانا في المعالي معرق
إلا الخلافة شرفتك فإنني أنا عاطل منها وأنت مطوق

(١٣) ظ. التصوير الفني في خطب الإمام علي ، د.عباس الفحام : ٤٩ وما بعدها

(١٤) هو أبو بكر عبد الكريم الطائع لأمر الله ، ببيع بالخلافة له سنة ٣٦٣ ، ثم خلع ، وقبض عليه الديلم سنة ٣٨١ ، وببيع لأخيه القادر ، فحمل إليه الطائع ، وبقي عنده إلى أن توفي سنة ٣٩٣ . والقادر هو أبو العباس أحمد بن إسحاق بن المقتدر ، المعروف بالقادر ، ببيع له بالخلافة بعد خلع أخيه ، وتوفي سنة ٤٢٢ . ظ. شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد: ٣٢/١

(١٥) ديوان الرضي : ١١٢/٢

فيقال أن القادر قال له: على رغم أنف الشريف^(١٦).

وقد حفل ديوانه بمثل تلك المعاني السامية والحماس المتقد ((وكان الرضي لعلو همته
تنازعه نفسه إلى أمور عظيمة يجيش بها خاطره ، وينظمها شعره ، ولا يجد من الدهر عليها
مساعدة ، فيذوب كمدا ، ويفنى وجدا ، حتى توفي ولم يبلغ غرضا))^(١٧) كقوله من قصيدة
أغاضت القادر العباسي كثيرا^(١٨) :

ما مقامي على الهوان وعندي مقول صارم وأنف حمي
واباء محلق بي عن الضيم كما زاغ طائر وحشي
أي عذر له إلى المجد إن ذل غلام في غمده المشرفي
أحمل الضيم في بلاد الأعادي وبمصر الخليفة العلوي
من أبوه أبي ومولاه مولاي إذا ضامني البعيد القصي
لف عرقي بعرفة سيدي الناس جميعا محمد وعلي

ومنه قوله^(١٩) :

متى تراني مشيحا في أوائلهم يطفو بي النقع أحيانا ويخفيني
لتنظرني مشيحا في أوائلها يغيب بي النقع أحيانا ويبيديني "
لا تعرفوني إلا بالطعان وقد أضحى لثامي معصوبا بعرنيني

ومنه قوله^(٢٠) :

لا هم قلبي بركوب العلا يوما ولا بلت يدي بالسماح
إن لم أنلها باشتراك كما شئت على بيض الطبي واقتراح
أفوز منها باللباب الذي يعيي الأمانى نيله والصراح

(١٦) ظ. عمدة الطالب، ابن عنبه : ٢١٠

(١٧) شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد: ٣٢/١

(١٨) ديوان الرضي : ١٠٠/٢

(١٩) ديوان الرضي : ١٢٥/٢

(٢٠) ديوان الرضي : ١٩٠/١

فما الذي يقعدني عن مدى ما هو بالبسل ولا باللقاح
يطمح من لا مجد يسمو به إني إذا أعذر عند الطماح
أما فتى نال المنى فاشتفى أو بطل ذاق الردى فاستراح !

وذكر ابن أبي الحديد شارح نهج البلاغة في مقدمته طرفا من أخباره في هذا الشأن أحق بالذكر فقال : ((.. وكان أبو إسحاق إبراهيم بن هلال الصابي^(٢١) الكاتب له صديقا ، وبينهما لحمة الأدب ووشائجه ، ومراسلات ومكاتبات بالشعر ، فكتب الصابي إلى الرضي في هذا النمط:

أبا حسن لي في الرجال فراسة تعودت منها أن تقول فتصدقا
وقد خبرتني عنك أنك ماجد سترقى إلى العلياء أبعد مرتقى
فوفيتك التعظيم قبل أوانه وقلت أطال الله للسيد البقا
وأضمرت منه لفظة لم أبح بها إلى أن أرى إظهارها لي مطلقا
فإن مت أو إن عشت فاذا بشارتي وأوجب بها حقا عليك محققا
وكن لي في الأولاد والأهل حافظا إذا ما اطمأن الجنب في مضجع البقا
فكتب إليه الرضي جوابا عن ذلك قصيدة أولها :

سننت لهذا الرمح غربا مذلقا وأجريت في ذا الهندواني رونقا
وسومت ذا الطرف الجواد وإنما شرعت لها نهجا فخب وأعنا

وهي قصيدة طويلة ثابتة في ديوانه ، يعد فيها نفسه ، ويعد الصابي أيضا ببلوغ أماله إن ساعد الدهر وتم المرام ، وهذه الأبيات أنكرها الصابي لما شاعت ، وقال : إني عملتها في الحسن

(٢١) هو أبو إسحاق الصابي ، صاحب الرسائل المشهورة ، كان كاتب الانشاء ببغداد عن الخليفة ، وعن عز الدولة بختيار بن معز الدولة بن بويه الديلمي ، وكان صابئيا متشددا في دينه ، وجهد عليه عز الدولة أن يسلم فلم يفعل ، ولكنه كان يصوم شهر رمضان مع المسلمين ، ويحفظ القرآن الكريم أحسن حفظ ، ويستعمله في رسائله ، ولما مات رثاه الشريف بقصيدته الدالية المشهورة : أرأيت من حملوا على الأعواد أرأيت كيف خبا ضياء النادي

وعاتبه الناس في ذلك لكونه شريفا يرثي صابئا ، فقال : إنما رثيت فضله . توفي سنة ٣٨٤ . ظ. وفيات الأعيان، ابن خلكان : ٥٤/١

علي بن عبد العزيز حاجب النعمان ، كاتب الطائع ، وما كان الأمر كما ادعاه ، ولكنه خاف على نفسه)) (٣٢) .

ولا ريب في أن تلك المزاي جميعا من علو الهمة والإخلاص للعقيدة والولاء المحض لأمير المؤمنين(ع) هي التي أبعدت الشريف الرضي عن المداهنة على حساب الحقيقة والموضوعية وقت جمعه لما تناثر من كلام علي عليه السلام، وما أغفله التاريخ أو ما حاولت السلطة تحريفه، ففي نهج البلاغة السيرة الصحيحة غير المحرفة للرسول الأعظم وما صنعت قريش معه ، وفيه تبيان لعلاقة الإمام علي(ع) بان عمه(ص) ، وفيه أيضا حديث عن السقيفة واغتصاب الخلافة وتفصيل حرب الناكثين في حرب الجمل والأحداث المريعة في البصرة ، وفيه تصوير حال المارقين في حرب صفين ، وبيان مآل القاسطين في حرب النهروان، وفيه الكثير من أحاديث النبي صلى الله عليه وآله في فضل علي عليه السلام التي اجتهد الحكام في تحريفها أو إخفائها أو ادعائها لغير علي عليه السلام، وفيه تسجيل لكرامات الإمام علي عليه السلام في استشفافه للمستقبل بما حدثه به ابن عمه العظيم عليه الصلاة والسلام ، وما حذر من فتن مختلفة عبر الأزمان التي تحقق بعضها وبعضها مما لم يتحقق بعد كما في البشارة بظهور المهدي عليه السلام وما يسبق ظهوره من فتن وظلم .

ولا أريد الادعاء هنا أن الذي حفظ كلام الإمام علي عليه السلام من الضياع هم محبوه وموالاه فقط ، لأن ذلك مجانب للصواب ، فالرضي نفسه جمع كلام الإمام من كثير من الذين سبقوه زمنيا وهم مخالفون لعلي عليه السلام وغير معروف عن كثير منهم بتوليهم للإمام علي عليه السلام كالتطبري والجاحظ والعسكري والمبرد وغيرهم ، وهؤلاء كلهم وكثير غيرهم مروا على كلام الإمام علي من باب الاستشهاد بتعزيز حادثة تاريخية كما في كثير من مصادر التاريخ ، أو بالاستناد إلى التمثيل بشاهد من الكلام الفصيح كما في كتب النقد والأدب ، أو بتعزيز رأي لغوي كما في مصادر اللغة والمعجمات . وذلك كله على جلاله جهود أصحابه لا يرقى إلى ما فعل الشريف الرضي من جمع وتبويب لذلك الشتات من كلام علي عليه السلام . ولا ريب في أن الفرق بين العملين واضح بين ، فالاتجاه الأول هو استشهاد بحكمة أو نص ما لا أكثر ، بينما الثاني هو تقص وجمع لأثر عظيم بعظمة فصاحة اللغة العربية التي اتخذها القرآن الكريم مادة إعجاز له .

(٢٢) شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد : ٣١ / ١ - ٣٩

ثانيا : تنوع المضامين

الناظر المتدبر لنهج البلاغة والكيفية التي جمع بها الرضي كلام الإمام عليه السلام ، يدرك انحصار المضامين المختلفة بثلاثة محاور تصدر عن رؤية كونية شاملة تمثل خلاصة فكر الإمام علي عليه السلام^(٢٣) وهي : المحور الأول : الله تعالى ، والمحور الثاني : الإنسان ، والمحور الثالث: العالم .

وعلى الرغم من أن الشريف الرضي قسم الكتاب إلى ثلاثة أقسام بغية حصر فنون كلام الإمام هي : القسم الأول : الخطب ، والقسم الثاني : الرسائل ، والقسم الثالث: الحكم أو قصار الكلم ، إلا أن المضامين الثلاثة لفكر الإمام بادية للعيان تتوزع تفاصيل كلامه مهما تنوع الحدث أو استجد ، فالمحور الأول تتوزعه خطب الوحدانية ووصف الذات الإلهية والتمجيد بحمده تعالى والدعاء له سبحانه، وهي خطب تأخذ حيزا كبيرا من القسم الأول الذي يمثل نصف تراث الإمام المجموع في الكتاب . وخطب الوحدانية في نهج البلاغة بعد من مفاخر العقلية العربية والكلام الفصيح بشكل عام، وإحدى كرامات الإمام علي - بوجه خاص - في التمثيل الإلهي للنبوّة والقرآن الكريم من حيث الشكل والمضمون، في وقت اندهاش الثقافة العربية وذهولها بالمعاني الجديدة التي جاء بها القرآن الكريم مما ذكرنا بعضه من خطب التوحيد، تلك الجدة التي حالت دون ظهور مبدعين مثل النبي محمد صلى الله عليه وآله وابن عمه علي عليه السلام يستطيعون تأدية هذه المعاني تأدية فنية تبين عن أثر حقيقي مبكر للتعبير القرآني في اللسان العربي وفنونه البيانية . فخطب التوحيد في نهج البلاغة غاية في ذروة الفصاحة على الرغم من جدة معانيها قال الشهيد المطهري : ((ولعلنا نستطيع أن نعد البحوث التوحيدية في نهج البلاغة من أعجب بحوث هذا الكتاب ، فإنها - بدون مبالغة ومع الالتفات إلى الشرائط الزمانية والمكانية للصدور - تقرب من حدود الإعجاز))^(٢٤)، نحو قوله عليه السلام : ((مَا وَحَدَهُ مَنْ كَيْفَهُ وَ لَا حَقِيقَتَهُ أَصَابَ مَنْ مَثَّلَهُ ، وَ لَا إِيَّاهُ عَنَى مَنْ شَبَّهَهُ ، وَ لَا صَمَدَهُ مَنْ أَشَارَ إِلَيْهِ وَ تَوَهَّمَهُ ، كُلُّ مَعْرُوفٍ بِنَفْسِهِ مَصْنُوعٌ وَ كُلُّ قَائِمٍ فِي سِوَاهُ مَعْلُوفٌ ، فَاعِلٌ لَا بِاضْطِرَابِ آلَةٍ مُقَدَّرٌ لَا بِجَوْلِ فِكْرَةٍ ، غَنِيٌّ لَا بِاسْتِفَادَةٍ ، لَا تَصْحَبُهُ الْأَوْقَاتُ وَ لَا تَرْفِدُهُ الْأَدَوَاتُ ، سَبَقَ الْأَوْقَاتَ كَوْنُهُ ، وَ الْعَدَمَ وَجُودُهُ وَ الْإِبْتِدَاءَ أَزَلَهُ بِتَشْعِيرِهِ الْمَشَاعِرَ عُرِفَ أَنْ لَا مَشْعَرَ لَهُ ، وَ بِمُضَادَّتَيْهِ بَيْنَ الْأُمُورِ عُرِفَ أَنْ لَا ضِدَّ لَهُ ، وَ بِمُقَارَنَتَيْهِ بَيْنَ الْأَشْيَاءِ عُرِفَ أَنْ لَا قَرِينَ لَهُ ، ضَادَّ النُّورِ بِالظُّلْمَةِ

(٢٣) ظ. زكي نجيب محمود ، المعقول واللامعقول : ٣٠

(٢٤) مرتضى المطهري ، في رحاب نهج البلاغة : ٣٥

وَ الْوُضُوحَ بِالْبُهْمَةِ ، وَ الْجُمُودَ بِالْبَلِّ وَ الْحُرُورَ بِالصَّرَدِ مُؤَلَّفٌ بَيْنَ مُتَعَادِيَاتِهَا مُقَارِنٌ بَيْنَ مُتَبَايِنَاتِهَا ، مُقَرَّبٌ بَيْنَ مُتَبَاعِدَاتِهَا مُفَرَّقٌ بَيْنَ مُتَدَانِيَاتِهَا ، لَا يُشْمَلُ بِحَدِّ وَ لَا يُحَسَبُ بِعَدِّ ، وَ إِنَّمَا تَحُدُّ الْأَدَوَاتُ أَنْفُسَهَا ، وَ تُشِيرُ الْأَلَاتُ إِلَى نَظَائِرِهَا ، ...)) (٢٥) .

ولا يملك أحد الجراءة - مستثنين رسول الله صلى الله عليه وآله طبعاً - على ذكر الذات المقدسة وصفاتها بهذه الدقة غير علي بن أبي طالب عليه السلام ، بل ليست لأحد هذه المعرفة بالله تعالى سواه ، وكل ذلك للتنشئة الخاصة التي وهبها في حضن النبوة والقرآن ، وهو القائل : ((وَ اللَّهُ مَا أَسْمَعُكَ الرَّسُولُ شَيْئاً ، إِلَّا وَ هَا أَنَا ذَا الْيَوْمِ مُسْمِعُكُمْوه)) (٢٦) .

أما المحور الثاني - أي الإنسان - فقد مثلته جملة عريضة من الموضوعات العلمية مثل أصل خلقه وضعفه وعلاقته بالله تعالى ، نحو قوله : (((أَمْ هَذَا الَّذِي أَنْشَأَهُ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْحَامِ وَ شُغْفِ الْأَسْتَارِ ، نُطْفَةً دِهَاقاً وَ عَلَقَةً مَحَاقاً ، وَ جَنِيناً وَ رَاضِعاً وَ وِلِيداً وَ يَافِعاً ، ثُمَّ مَنَحَهُ قَلْباً حَافِظاً وَ لِسَاناً لَافِظاً وَ بَصِيراً لَاحِظاً ، لِيَفْهَمَ مُعْتَبِراً وَ يُقْصِرَ مُزْدَجِراً ، حَتَّى إِذَا قَامَ اعْتِدَالُهُ وَ اسْتَوَى مِثْلُهُ ، نَفَرَ مُسْتَكْبِراً وَ خَبَطَ سَادِراً مَاتِحاً فِي غَرْبِ هَوَاهُ ، كَادِحاً سَعِياً لِذُنْيَاهُ فِي لَذَاتِ طَرَبِهِ وَ بَدَوَاتِ أَرْبِهِ)) (٢٧) . وفي هذا الكلام من دقيق المعاني ما لا يخفى من تضمنه للأطوار المتتابعة لخلق الإنسان بدءاً من الحاضنة وهي الأرحام فطور النطفة ثم العلقة وانتهاء بتكوين الجنين .

ومثل تجلية كلام الإمام عما يعترى الإنسان من حالات نفسية خفية يصعب كشفها بطريق اللغة على غير الإمام(ع) كالخوف والجبن والتملق والغضب وخلط الحق بالباطل والنفاق والقلق ، نحو قوله في وصف الجبن : ((إِذَا دَعَوْتُكُمْ إِلَى جِهَادِ عَدُوِّكُمْ دَارَتْ أَعْيُنُكُمْ ، كَأَنَّكُمْ مِنَ الْمَوْتِ فِي عُمَرَةٍ ، وَ مِنَ الذُّهُولِ فِي سَكْرَةٍ)) (٢٨) . وقوله في ندامة المحتضر : ((وَإِنَّهُ لَبَيِّنٌ أَهْلُهُ يَنْظُرُ بِبَصَرِهِ ، وَ يَسْمَعُ بِأُذُنِهِ عَلَى صِحَّةٍ مِنْ عَقْلِهِ ، وَ بَقَاءٍ مِنْ لُبِّهِ ، يُفَكِّرُ فِيهِمْ أَفْنَى عُمُرِهِ ، وَ فِيهِمْ أَذْهَبَ دَهْرِهِ ، وَ يَتَذَكَّرُ أَمْوَالاً جَمَعَهَا أَعْمَضَ فِي مَطَالِبِهَا ، وَ أَخَذَهَا مِنْ مُصْرَحَاتِهَا وَ مُسْتَبْهَاتِهَا ... فَهُوَ يَعِضُّ يَدَهُ نَدَامَةً ، عَلَى مَا أَصْحَرَ لَهُ عِنْدَ الْمَوْتِ مِنْ أَمْرِهِ ، وَ يَزْهَدُ فِيهَا كَمَا كَانَ يَرْغَبُ فِيهِ أَيَّامَ عُمُرِهِ ، وَ يَتَمَنَّى أَنَّ الَّذِي كَانَ يَغْبِطُهُ بِهَا ، وَ يَحْسُدُهُ عَلَيْهَا قَدْ حَارَها دُونَهُ ، فَلَمْ يَزَلِ الْمَوْتُ يُبَالِغُ فِي جَسَدِهِ ، حَتَّى خَالَطَ سَمْعَهُ ، فَصَارَ بَيْنَ أَهْلِهِ لَا يَنْطِقُ

(٢٥) نهج البلاغة، الإمام علي (ع): ٦٩/٢

(٢٦) نفسه: ١٨٠/١

(٢٧) نفسه: ١٦٠/١

(٢٨) نفسه: ٩٢/١

بِلِسَانِهِ ، وَ لَا يَسْمَعُ بِسَمْعِهِ ، يُرَدِّدُ طَرْفَهُ بِالنَّظَرِ فِي وُجُوهِهِمْ))^(٢٩) . وقوله في صفة المتملق المنافق حين مدحه رجلٌ وكان متهماً له في نفسه: ((أنا دونَ ما تقولُ وفوقَ ما في نفسك))^(٣٠) . ومثل قوله مصوراً تمكن هيبته من النفوس ، وقد سُئِلَ : بِمَ غَلَبَتِ الأقرانَ؟ فقال: ((ما لقيتُ رجلاً إلا أعانني على نفسه))^(٣١) .

ومن رائع ما يذكر هنا تمكن التعبير العلوي من الانطلاق من أسر التجربة الشخصية إلى تعميم ألقها ، فالتجارب الشخصية التي مر بها الإمام عليه السلام انصهرت في عوالم هذه المحاور بحيث استطاع أن ينقلها من الموقف الشخصي في الأداء الى أفق عام أرحب في الشمولية ، وأن يقدمها زادا للإنسانية يمكن أن تستقي منه عبر مختلف عصورها ، ولعل هذا بعض ما يفسر سر الحياة في نهج البلاغة وسيروورته في الآفاق، فليس لأمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام موقف ضيق منطوي على تجربة محدودة تموت بموت صاحبها ، بل كل تجاربه الشخصية منطلقة من المفهوم القرآني للحياة والإنسان وارتباطه بخالقه ، ومن هنا نجد تجاربه مما تتواكب معه مفاهيم الإنسانية بمختلف توجهاتها وانتماءاتها لأنها ببساطة مستقاة من المعين القرآني الذي يكتنف الإنسان في الدنيا والآخرة^(٣٢) .

أما موضوعات المحور الثالث فهي تشمل مضامين غاية في الجدة مثل خلق السموات والأجرام الفلكية الأخرى ، ومثل خلق الأرض والجال والبحار و وقفاته التفصيلية في خلق الحيوان كالنملة والخفاش والطاووس . نحو قوله في صفة النملة : ((.. أنظروا إلى النملة في صغر جنتها ولطافة هيئتها ، لا تكاد تنال بلحظ البصر ، ولا بمستدرك الفكر ، كيف دبّت على أرضها ، وصبت على رزقها ، تنقل الحبة إلى جحرها ، وتعدّها في مستقرها . تجمع في حرها لبردها ، وفي ورودها لصدرها ..))^(٣٣) . وقوله في بديع خلقة الخفاش : ((.. ومن لطائف صنعته وعجائب خلقته ما أرانا من غوامض الحكمة في هذه الخفافيش التي يقبضها الضياء الباسط لكل شيء . ويبسطها الظلام القابض لكل حي . وكيف عشيت أعينها عن أن تستمد من

(٢٩) المصدر نفسه : ٢٥٠/١

(٣٠) البيان والتبيين، الجاحظ: ٧٧/٢، عيون الأخبار، ابن قتيبة : ٢٧٦/١ .

(٣١) شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد: ٢٢٦/١٩ .

(٣٢) ظ.عباس الفحام، الأثر القرآني في نهج البلاغة : ٢٨٤-٢٨٥

(٣٣) نهج البلاغة، الإمام علي (ع): ١١٦/٢ - ١١٧

الشمس المضيئة نورا تهتدي به في مذهبها ، وتتصل بعلائية برهان الشمس إلى معارفها . وردعها بتألو ضيائها عن المضي في سبحات إشراقها وأكنها في مكانها عن الذهاب في بلج اتلاقها ، فهي مسدلة الجفون بالنهار على أحداقها . وجاعلة الليل سراجا تستدل به في التماس أرزاقها . فلا يرد أبصارها إسداف ظلمته . ولا تمتنع من المضي فيه لغسق دجنته . فإذا ألقى الشمس قناعها ، وبدت أوضاع نهارها ، ودخل من إشراق نورها على الضباب في وجارها أطبقت الأجنان على مآقيها وتبلغت بما اكتسبت من فئ ظلم لياليها . فسبحان من جعل الليل لها نهارا ومعاشا . والنهار سكنا وقرارا . وجعل لها أجنحة من لحمها تعرج بها عند الحاجة إلى الطيران كأنها شطايا الأذان ، غير ذوات ريش ولا قصب . إلا أنك ترى مواضع العروق بينة أعلاما . لها جناحان لما يرقا فينشقا . ولم يغلظا فيثقلا . تطير وولدها لاصق بها لاجئ إليها يقع إذا وقعت . ويرتفع إذا ارتفعت . لا يفارقها حتى تشتد أركانها . ويحمله للنهوض جناحه . ويعرف مذاهب عيشه ومصالح نفسه . ((^(٣٤))) . وقوله في خلق الطاووس : ((ومن أعجبها خلقا الطاووس الذي أقامه في أحكم تعديل ، ونضد ألوانه في أحسن تنضيد ، بجناح أشرج قصبه ، وذنب أطال مسحبه . إذا درج إلى الأنثى نشره من طيه ، وسما به مطلا على رأسه كأنه قلع داري عنجه نؤتيه . يختال بألوانه ، ويميس بزيفانه . يفضي كإفضاء الديكة ، ويؤر بملاقحة أر الفحول المغتلمة في الضراب . أحييك من ذلك على معاينة ، لا كمن يحيل على ضعيف إسناده . ولو كان كزعم من يزعم أنه يلحق بدمعة تسفحها مدامعه ، فتقف في ضفتي جفونه وأن أنثاه تطعم ذلك ، ثم تبيض لا من لقاح فحل سوى الدمع المنبجس لما كان ذلك بأعجب من مطاعمة الغراب . تخال قصبه مداري من فضة وما أنبت عليها من عجيب داراته وشموسه خالص العقيان وفلذ الزبرجد فإن شبهته بما أنبتت الأرض قلت جني جني من زهرة كل ربيع . وإن ضاهيته بالملابس فهو كموشي الحلل ، أو مونق عصب اليمين . وإن شاكلته بالحلي فهو كفصوص ذات ألوان قد نطقت باللجين المكمل)) .(^(٣٥))

تنوع الموضوعات – إذن – أساس آخر اعتمده الشريف الرضي في جمع كلام الإمام(ع) وتبويبه .

(٣٤) نهج البلاغة، الإمام علي (ع): ٤٥/٢ - ٤٧

(٣٥) نفسه : ٧١/٢ - ٧٣

المحور الثاني

الأسس الفنية

أولاً: الحس البلاغي

حاز الشريف الرضي على ملكات أتاحت له الإبداع في اختياراته لكلام الإمام علي عليه السلام وحسن تبويبها، واختيار هذا الاسم الخالد لها (نهج البلاغة) ، إضافة إلى جمال تعليقاته عليها ، وهي إضافات فنية رائعة تستحق لوحدها أن تدرس كظاهرة فنية وموضوعية .

ولعل أولى تلك المواهب هي شاعريته وتمكنه من الإمساك بزمام ناصية العربية الفصيحة وبلاغتها الرفيعة ، فالرضي أصلاً شاعر مبدع قدم هذا الفن القولي بممازجة رائعة بين فنون البيان والبديع ، وعنايته بذلك هي التي أتاحت له دراسة النصوص البلاغية الرفيعة بمستوياتها المختلفة من الإعجاز المتمثل بكتابه (تلخيص البيان) حتى النصوص النبوية الشريفة في كتابه (المجازات النبوية) والكلام العلوي الرائع في كتابه (نهج البلاغة) . نعم كان الحس البلاغي وعناية دراسات الرضي بالفنون البلاغية مكنته من تقديم أعمال علمية رائدة أغنت المكتبة العربية وأثرت البحث العلمي بشكل لافت بما ذكرنا من المصنفات العظيمة التي قدمها الرضي رحمه الله تعالى .

وقد أعرب الرضي عن نهجه في مقدمة كتابه (نهج البلاغة) وعن السبب الذي دعاه لاختياراته فقال : ((فإني كنت في عنفوان السن ، وغضاضة الغصن ، ابتدأت بتأليف كتاب خصائص الأئمة عليهم السلام يشتمل على محاسن أخبارهم وجواهر كلامهم : حداني عليه غرض ذكرته في صدر الكتاب وجعلته أمام الكلام . وفرغت من الخصائص التي تخص أمير المؤمنين علياً عليه السلام . وعاقبت عن إتمام بقية الكتاب محاجزات الزمان ومماطلات الأيام . وكنت قد بوبت ما خرج من ذلك أبواباً . وفصلته فصولاً فجاء في آخرها فصل يتضمن محاسن ما نقل عنه عليه السلام من الكلام القصير في المواعظ والحكم والأمثال والآداب دون الخطب الطويلة والكتب المبسوبة . فاستحسن جماعة من الأصدقاء والإخوان ما اشتمل عليه الفصل المقدم ذكره معجبين ببدائعه ومتعجبين من نواصعه ، وسألوني عند ذلك أن أبدأ بتأليف كتاب يحتوي على مختار كلام مولانا أمير المؤمنين عليه السلام في جميع فنونه ، ومنتشبات غصونه ، من خطب وكتب ومواعظ وآداب علما أن ذلك يتضمن عجائب البلاغة وغرائب الفصاحة وجواهر العربية وثواقب الكلم الدينية والدينيوية ما لا يوجد مجتمعاً في كلام ولا مجموع الأطراف في كتاب ... ورأيت كلامه عليه السلام يدور على أقطاب ثلاثة : أولها الخطب

والأوامر . وثانيها الكتب والرسائل وثالثها الحكم والمواعظ . فأجمعت بتوفيق الله تعالى على الابتداء باختيار محاسن الخطب ، ثم محاسن الكتب ثم محاسن الحكم والأدب ، مفردا لكل صنف من ذلك بابا ومفصلا فيه أوراقا لتكون مقدمة لاستدراك ما عساه يشذ عني عاجلا ويقع إلي أجلا . وإذا جاء شئ من كلامه عليه السلام الخارج في أثناء حوار أو جواب سؤال أو غرض آخر من الأغراض في غير الأنحاء التي ذكرتها وقررت القاعدة عليها نسبه إلى ألبق الأبواب به وأشدها ملامحة لغرضه . وربما جاء فيما أختاره من ذلك فصول غير متسقة ، ومحاسن كلم غير منتظمة ، لأنني أورد النكت واللمع ولا أقصد التتالي والنسق))^(٣٦) . الاختيارات - إذن - جاءت على أساس من حس بلاغي رائع وشاعرية مرهفة تدل عليها الألفاظ التي جاءت على لسانه في أكثر من موضع في مقدمته مثل (محاسن ، اختيار) ونحو ألفاظ تنم عن حس بديعي يشير إلى البلاغة القديمة نحو (النكت ، اللمع) .

إن تجربة دراسته الجمعية لكلام أمير المؤمنين عليه السلام في كتابه (نهج البلاغة) تكرر لتجربته في الدراسة البلاغية المستفيضة للحديث النبوي في كتابه الرائع (المجازات النبوية) ، غير أنه في الأول بدا جامعا بلاغيا بينما في الثاني كان بلاغيا بشكل واضح . وكلا الحاليين تنم عن تمكن في الأداء البلاغي تعززه الأمثلة التي سنورد مختصرها في (نهج البلاغة) .

الفنون البيانية :

ذكر السيد الرضي في بعض تعليقاته على كلام الإمام عليه السلام بعضا من الفنون البلاغية كالبيان والبديع والمعاني ، ومنها :

أولا: المجاز

أشار السيد الرضي إلى المجاز المرسل من دون أن يسميه معلقا على قول الإمام عليه السلام: ((من يعط باليد القصيرة يعط باليد الطويلة)) فقال: ((ومعنى ذلك أن ما ينفقه المرء من ماله في سبيل الخير والبر وإن كان يسيرا فإن الله تعالى يجعل الجزاء عليه عظيما كثيرا ، واليدان ههنا عبارتان عن نعمتين ، ففرق عليه السلام بين نعمة العبد ونعمة الرب فجعل تلك قصيرة وهذه طويلة لأن نعم الله أبدا تضعف على نعم المخلوق أضعافا كثيرة إذ كانت نعم الله

(٣٦) نهج البلاغة، الإمام علي (ع): ١٢/١

أصل النعم كلها . فكل نعمة إليها ترجع ومنها تنزع))^(٣٧) . والنعم مسببة عن اليد فهي مجاز مرسل علاقته السببية ، وهو إنما لم يشير إليها بمصطلحاتها لأنها لم تكن معروفة في زمانه على هذا النحو المحدد^(٣٨) .

ثانيا : (الاستعارة)

قوله عليه السلام : ((العين وكاء السه)) ، علق الرضي فقال: ((وهذا من الاستعارات العجيبة كأنه شبه السه بالوعاء والعين بالوكاء ، فإذا أطلق الوكاء لم ينضبط الوعاء . وهذا القول في الأشهر الأظهر من كلام النبي عليه السلام ، وقد رواه قوم لأمير المؤمنين عليه السلام . وذكر ذلك المبرد في كتاب المقتضب في باب اللفظ بالحروف . وقد تكلمنا على هذه الاستعارة في كتابنا الموسوم بمجازات الآثار النبوية))^(٣٩) ، والسيد الرضي رحمه الله لشدة أمانته في النقل العلمي كثيرا ما يشير إلى ظاهرة الاختلاف في بعض جوامع الكلم وتردد نسبتها بين النبي صلى الله عليه وآله والإمام علي عليه السلام في مواضع مختلفة من الكتاب بعضها يثبت النسبة لأحدهما ، مثل قوله عليه السلام ((أخبر تقله)) ، فقال : ((ومن الناس من يروي هذا للرسول صلى الله عليه وآله، ومما يقوي أنه من كلام أمير المؤمنين عليه السلام ما حكاه ثعلب عن ابن الأعرابي : قال المأمون : لولا أن عليا قال " أخبر تقله " لقلت : أقله تخبر))^(٤٠) .

وبعضها يعلل سبب التردد بأبلغ تعليق كما في قوله عليه السلام ((الحجر الغصيب في الدار رهن على خرابها)) ، فقال: ((ويروى هذا الكلام عن النبي صلى الله عليه وسلم ولا عجب أن يشتبه الكلامان، لأن مستقاهما من قلب ومفرغهما من ذنوب))^(٤١) .

ثالثا : الكناية

قال عليه السلام : ((إذا بلغ النساء نص الحقائق فالعصبة أولى)) ، فعلق الرضي بقوله ((والنص منتهى الأشياء ومبلغ أقصاها كالنص في السير لأنه أقصى ما تقدر عليه الدابة ، وتقول

(٣٧) نهج البلاغة، الإمام علي (ع): ٥١/٤ - ٥٢

(٣٨) ظ. البلاغة العربية، أحمد مطلوب : ٧٧

(٣٩) نهج البلاغة، الإمام علي (ع): ١٠٧/٤

(٤٠) نفسه : ١٠١/٤

(٤١) نهج البلاغة، الإمام علي (ع): ٥٣/٤

نصت الرجل عن الأمر إذا استقصيت مسألته عنه لتستخرج ما عنده فيه . فنص الحقائق يريد به الإدراك لأنه منتهى الصغر والوقت الذي يخرج منه الصغير إلى حد الكبير . وهو من أفصح الكنايات عن هذا الأمر ، فإذا بلغ النساء ذلك فالعصبة أولى بالمرأة من أمها إذا كانوا محرماً مثل الإخوة والأعمام وبتزويجها إن أرادوا ذلك . والحقاق محاكاة الأم للعصبة في المرأة وهو الجدل والخصومة وقول كل واحد منهما للآخر أنا أحق منك بهذا ، يقال منه حاققته حقاقا مثل جادلته جدالا . وقد قيل إن نص الحقائق بلوغ العقل وهو الإدراك لأنه عليه السلام أراد منتهى الأمر الذي تجب فيه الحقوق والأحكام . ومن رواه نص الحقائق وإنما أراد جمع حقيقة . هذا معنى ما ذكره أبو عبيد . والذي عندي أن المراد بنص الحقائق ههنا بلوغ المرأة إلى الحد الذي يجوز فيه تزويجها وتصرفها في حقوقها ، تشبيها بالحقاق من الإبل وهي جمع حقة وحق وهو الذي استكمل ثلاث سنين ودخل في الرابعة ، وعند ذلك يبلغ إلى الحد الذي يتمكن فيه من ركوب ظهره ونصه في السير . والحقائق أيضا جمع حقة . فالروايتان جميعا ترجعان إلى معنى واحد ، وهذا أشبه بطريقة العرب من المعنى المذكور)) (٤٢) .

وفي شاهد آخر ، قال عليه السلام : ((كنا إذا احمر البأس اتقينا برسول الله صلى الله عليه وآله فلم يكن منا أقرب إلى العدو منه)) ، فقال الرضي: ((ومعنى ذلك أنه إذا عظم الخوف من العدو واشتد عضاض الحرب فزع المسلمون إلى قتال رسول الله صلى الله عليه وآله بنفسه ، فينزل الله عليهم النصر به ويأمنون مما كانوا يخافونه بمكانه ، وقوله عليه السلام : إذا احمر البأس كناية عن اشتداد الأمر . وقد قيل في ذلك أقوال أحسنها أنه شبه حمى الحرب بالنار التي تجمع الحرارة والحمرة بفعلها ولونها)) (٤٣) .

ثانيا: الفنون البديعية

وقد أشار الرضي إلى إثارة ألفاظ في الكلام في نهج البلاغة دون غيرها توخيا لطلب التنعيم الصوتي نحو قوله عليه السلام في الخطبة الشقشقية : ((فصاحبها كراكب الصعبة إن أشنق لها حرم، وإن أسلس لها تقم ..))، فقال : ((يريد أنه إذا شدد عليها في جذب الزمام وهي تنازع رأسها حرم أنفها وإن أرخى لها شيئا مع صعوبتها تقممت به فلم يملكها . يقال

(٤٢) نهج البلاغة، الإمام علي (ع): ٥٨/٤ - ٥٩

(٤٣) نفسه : ٦١/٤ - ٦٢

أشنع الناقاة إذا جذب رأسها بالزمام فرفعه وشنقها أيضا ، ذكر ذلك ابن السكيت في إصلاح المنطق . وإنما قال أشنع لها ولم يقل أشنعها لأنه جعله في مقابلة قوله أسلس لها فكأنه عليه السلام قال إن رفع لها رأسها بمعنى أمسكه عليها))^(٤٤) .

وفي إشارة أخرى على لون بديعي آخر علق الرضي على قول الإمام علي عليه السلام: ((كان في الأرض أمانان من عذاب الله وقد رفع أحدهما فدونكم الآخر فتمسكوا به، أما الأمان الذي رفع فهو رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأما الأمان الباقي فالاستغفار قال الله تعالى : " وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون " ^(٤٥))) ، فقال: ((وهذا من محاسن الاستخراج ولطائف الاستنباط) ^(٤٦) . وقوله مشيرا إلى فن عكس الكلام وقلبه في قوله عليه السلام: ((لسان العاقل وراء قلبه ، وقلب الأحمق وراء لسانه)) ، فقال : ((وهذا من المعاني العجيبة الشريفة . والمراد به أن العاقل لا يطلق لسانه إلا بعد مشاوره الروية ومؤامرة الفكرة ، والأحمق تسبق حذفات لسانه وقلبات كلامه مراجعة فكره ومماخضة رأيه . فكأن لسان العاقل تابع لقلبه ، وكأن قلب الأحمق تابع للسانه)) ^(٤٧) .

بقي أن نؤكد حقيقة مهمة في الدرس البلاغي عند الرضي تتعلق بقضية المصطلح البلاغي ، فالسيد الرضي من العلماء البلاغيين الذين يميلون إلى الاتجاه الأدبي في الدراسات البلاغية الذين لا يعينهم تحديد المصطلح البلاغي ، ومن المعروف أن عصر الرضي وهو الرابع والخامس الهجري شهد خلطا واضحا بين المصطلحات البلاغية فقد يعنون بالبلاغة الفصاحة وقد يطلقون الفصاحة على الاستعارة أو فنون علم المعاني أو البديع^(٤٨) كما في تعليقاته تعليقاته الكثيرة على كلام الإمام علي مطلقا مصطلح (الفصاحة) على الفن الاستعاري مثل شرحه لقول الإمام عليه السلام في دعاء استسقى به: ((اللهم اسقنا ذلل السحاب دون صعابها)) فقال: ((وهذا من الكلام العجيب الفصاحة، وذلك أنه عليه السلام شبه السحاب ذوات الرعود والبرارق والرياح والصواعق بالإبل الصعاب التي تقمص برحالهها وتقص بركبانها ، وشبه

(٤٤) نهج البلاغة، الإمام علي (ع) : ١ / ٣٧ - ٣٨

(٤٥) الأنفال : ٣٣

(٤٦) نهج البلاغة، الإمام علي (ع) : ٤ / ١٩ - ٢٠

(٤٧) نهج البلاغة، الإمام علي (ع) : ٤ / ١١ - ١٢

(٤٨) ظ. البلاغة العربية، أحمد مطلوب : ٥٣ - ٥٩

السحاب خالية من تلك الروائع بالإبل الذلل التي تحتلب طبيعة وتقتعد مسمحة^(٤٩). ومثل ذلك قول الإمام عليه السلام: ((لنا حق فإن أعطينا وإلا ركبنا أعجاز الإبل وإن طال السرى فقال:)) وهذا من لطيف الكلام وفصيحه، ومعناه أنا إن لم نعط حقنا كنا أذلاء وذلك أن الرديف يركب عجز البعير كالعبد والأسير ومن يجري مجراهما^(٥٠). وغير ذلك كثير في كتاب النهج من تذييلاته رحمه الله مثل عبارة (وهذا من أفصح الكلام ، العبارات الفصيحة ، عجيب الكلام..)).

وقد ظل الرضي مراعيًا لهذا الأساس البلاغي الذي حدده لنفسه في أسلوب اختياراته لكلام الإمام عليه السلام ، فأحيانًا يعرض عن ذكر كامل نص الإمام للسبب الذي ألزم به نفسه لا لعيب في النص المختار معاذ الله ، ولكنه الاكتفاء بإيراد الشاهد من محاسن الكلام واقتناص الشارد واستلحاق الوارد^(٥١) كما يحلو له أن يسميه ، فقد فعل مثل ذلك في قول الإمام عليه السلام : ((الكفر على أربع دعائم : على التعمق والتنازع والزيغ والشقاق ، فمن تعمق لم ينب إلى الحق ومن كثر نزاعه بالجهل دام عماه عن الحق ، ومن زاغ ساءت عنده الحسنة وحسنت عنده السيئة وسكر سكر الضلالة ، ومن شاق وعرت عليه طريقه وأعضل عليه أمره ، وضاق عليه مخرجه ..)) فقال : ((وبعد هذا كلام تركنا ذكره خوف الإطالة والخروج عن الغرض المقصود في هذا الكتاب))^(٥٢) .

الشريف الرضي – إنن – حكم حسه البلاغي في اختياراته وانتقائه ، وليته نقل نصوص الإمام كاملة في كتاب آخر.

ثانيا : سمة العصر

فكرة الاختيارات

أعني بسمة العصر ، ذلك الأسلوب المنهجي الفني في التأليف الذي امتد من القرن الثالث الهجري حتى القرون التي تلتها في طبيعة الجمع والتبويب القائمة على الاختيارات

(٤٩) نهج البلاغة، الإمام علي (ع): ١٠٨/٤ - ١٠٩

(٥٠) نفسه : ٦ /٤

(٥١) ظ. المصدر نفسه : ١١٠/٤ - ١١١

(٥٢) نفسه : ٩ /٤ - ١٠

والانتقادات الفنية أو الموضوعية بدءا باختيارات المفضل الضبي التي أسماها المفضليات المفضليات واختيارات الأصمعي التي أطلق عليها الأصمعيات وكما فعل الأخفش الأصغر(ت٣١٥هـ) في انتقائه من كل من المفضليات والأصمعيات فوضع كتاب الاختيارين، وكذلك اختيارات ابن الشجري، ثم كتب الحماسة كحماسة أبي تمام وحماسة البحري التي مما عمد مؤلفوها إلى اختيار مجموعات فنية شعرية لشعراء ينتقون على وفق سمات يعلن صاحب المصنف عنها في مقدمته أو قد لا يعلن . وقد كانت تلك سمة طبعت الكثير من المصنفات الأدبية التي سادت عصور النقد والتأليف .

أسلوب الرضي

ولا ريب في أن الشريف الرضي قد تأثر بأسلوب عصره في طلبه لأسلوب الاختيارات ، فجاءت أروع مؤلفاته على هذا الأسلوب ، ولكن روعة الرضي تكمن في الكيفية التي أفاد بها من أسلوب عصره ، فقد صرفها إلى وجهة أخرى جد نافعة في رقي الكلام العربي ، فانقل بها من سلم الأدب العربي وجمع القصائد العربية القديمة إلى مدارج الإعجاز بنسبه المتفاوتة بين الكلام الإلهي وكلام النبي صلى الله عليه وآله وابن عمه علي بن أبي طالب . فكان أن طلع علينا بكتب أثرت الكلام العربي وميزته وأغنته ، وكانت الاختيارات سمتها وطابعها وهي :

أولاً: تلخيص البيان

ثانياً: المجازات النبوية

ثالثاً: نهج البلاغة

إن الناظر المتفحص في هذه الكنوز الرائعة يستطيع أن يستشف روح العصر فيها ، وعظمة همة مؤلفها في تمكنه من لي عنق العصر وإذابة ذوقه في وضع هذه المصنفات وخدمتها بالشكل والمضمون اللافت الذي طلعت عليه ، بأسلوب مبتكر وجديد في الكشف عن البيان القرآني والنبوي والعلوي . وهو وإن كان في الأول والثاني منها بلاغيا كاشفا عن جماليات البيان العربي فيهما إلا أنه في نهج البلاغة كان جامعاً مختاراً لكلام علي (ع) كما صرح هو بذلك من غير أن يتخلّى عن بيانه في كثير من الوقفات والتعليقات على كلام الإمام علي عليه السلام كما بان ووضح .

وأحسب أن الرضي كان يمكن أن يكون بيانيا صرفا في كتابه (نهج البلاغة) ينصرف فيه إلى ذات المنهج الذي اعتمده من الوقوف والتحليل البلاغي والكشف عن خبيئات المعاني في كتابيه الجليلين (تلخيص البياني) و (المجازات النبوية) لو لا أنه وجد نفسه في حاجة ماسة إلى لملمة ما تثار من كلام الإمام علي عليه السلام والعمل على تبويبه وتنظيمه على وفق الأقسام الثلاثة التي نشر فيها الكلام العلوي ، ولا ريب في أن ذلك جهد كبير شغله عن النظر المتأنى والوقفة الطويلة، وإن كنا لا نعدم بعض تعليقاته كما مر معنا في البحث.

ولاشك في أن الرضي لو سبق بكتاب مجموع فيه كلام الإمام عليه السلام لصنع الصنيع نفسه من الشرح والتحليل البلاغي بأسلوبه الرفيع الذي عرف به في كتابيه الأنفي الذكر. وخلاصة القول فإن الرضي صنع كل الخير بجمعه للكنوز المتناثرة من رفيع البلاغة العربية جمعا ابتني على أسس موضوعية وفنية ، وشرع لاختياراته اسما جامعا استقاه من نفس علي عليه السلام وبلاغته فكان بحق (نهج البلاغة) .

الخاتمة

توضحت من البحث مجموعة من النتائج يمكن إدراجها بنقاط منها:

أولاً:

أن فكرة الاختيارات هي أصلا منهج عصر الشريف الرضي ولكنه وظفه في خدمة غرضه العقدي .

ثانياً:

أن الاختيارات جاءت على وفق أسس بعضها أعلن عنه الرضي وأكثرها استشف من دراسة الكتاب .

ثالثاً :

حدد البحث أسس الاختيارات بمحورين هي : الأسس الموضوعية وضمت : العقيدة وتنوع المضامين . والمحور الثاني : الأسس الفنية وضمت : الحس البلاغي ، وسمة العصر .

المصادر

القرآن الكريم

- ❖ الأثر القرآني في نهج البلاغة ،دراسة في الشكل والمضمون ، الدكتور عباس علي الفحام .دار الرافدين ، الطبعة الأولى، بيروت – ٢٠١٠م.
- ❖ الأعلام، خير الدين الزركلي ، دار العلم للملايين ، بيروت- الطبعة الأولى، ١٩٨٠ م .
- ❖ مسند أحمد ، أحمد بن حنبل(ت٢٤١هـ) ، دار صادر ، بيروت . بدون تاريخ أو مكان الطبع.
- ❖ البلاغة العربية،المعاني والبيان والبديع، الدكتور أحمد مطلوب، مؤسسة دار الكتب، بغداد، الطبعة الأولى، ١٩٨٠م.
- ❖ البيان والتبيين، الجاحظ، تحقيق : عبد السلام محمد هارون ، مكتبة الخانجي ، الطبعة الخامسة ، القاهرة - ١٩٨٥ م .
- ❖ التصوير الفني في خطب الإمام علي (ع)، الدكتور عباس علي الفحام ، مؤسسة دار الصادق ، الأردن، الطبعة الأولى، ٢٠١٢م.
- ❖ تهذيب الأحكام، الشيخ الطوسي(ت ٤٦٠هـ)، تحقيق وتعليق : السيد حسن الموسوي الخراسان، الطبعة : الثالثة، ١٣٦٤ هـ ، مطبعة خورشيد.
- ❖ ديوان الشريف الرضي(ت٤٠٦هـ)،تحقيق:الدكتور عبد الفتاح محمد الحلوة، دار الطليعة- باريس ، الطبعة الأولى.
- ❖ شرح نهج البلاغة ، ابن أبي الحديد المدائني (ت ٦٥٦ هـ).تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار إحياء التراث العربي ، القاهرة، ١٩٥٩ م .
- ❖ عمدة الطالب في أنساب آل أبي طالب، جمال الدين الحسيني المعروف بابن عنبه(ت٨٢٨هـ)، عني بتصحيحه السيد محمد حسن الطالقاني، الطبعة الثانية، المطبعة الحيدرية، النجف الأشرف -١٩٦١م.
- ❖ عيون الأخبار ، لأبي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري (ت ٢٧٦هـ)، المطبعة العربية - مصر ١٣٤٣هـ-١٩٢٥م.

- ❖ الفهرست، الشيخ الطوسي(ت٤٦٠هـ) ، تحقيق: الشيخ جواد القيومي، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ ، مؤسسة نشر الفقاهة.
- ❖ في رحاب نهج البلاغة، مرتضى المطهري، ترجمة هادي اليوسفي ، دار التعارف للمطبوعات، الطبعة الأولى،بيروت، ١٩٧٨م.
- ❖ كتاب الرجال ، الحسن بن علي بن داوود الحلبي (ت٧٠٧هـ) ، تحقيق: محمد صادق بحر العلوم ، المطبعة الحيدرية ، النجف الشرف ، ١٩٧٢م .
- ❖ كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال ، المتقي الهندي ، علاء الدين بن حسام الدين (ت ٩٧٥هـ) ، ضبطه وفسر غريبه : الشيخ بكرى حياني ، مؤسسة الرسالة ، بيروت _ لبنان ١٩٨٩م .
- ❖ لسان الميزان، ابن حجر (ت ٨٥٢هـ)، الطبعة الثانية - ١٩٧١ م، مطبعة مؤسسة الأعلمي للمطبوعات - بيروت - لبنان.
- ❖ معجم رجال الحديث ، أبو القاسم الخوئي ، الطبعة الخامسة ، ١٩٩٢م .
- ❖ المعقول واللامعقول في تراثنا الفكري، زكي نجيب محمود ، دار الشروق ، القاهرة - بيروت، بدون تاريخ.
- ❖ نهج البلاغة ، محمد عبده ، مطبعة بابل - بغداد ١٩٨٤م .
- ❖ وسائل الشيعة (آل البيت)، الحر العاملي (ت ١١٠٤هـ)، تحقيق : مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث، الطبعة الثانية، ١٤١٤هـ، مطبعة مهر - قم
- ❖ وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ابن خلكان(ت٦٨١هـ) ، تحقيق : إحسان عباس، مطبعة دار الثقافة، لبنان.